ب - النظرية السيميائية :

يعود تاريخ السيميائيات إلى ألفي سنة مضت، كما يقول إيكو، وهو يتكلم عن السيميائيات القديمة على النحو التالي: «إن الرواقيين هم أول من قال بأن للعلامة Signe دالا ومدلولا (Signifiant - Signifié) وارتكزت السيميائيات المعاصرة على إكتشافاتهم الأولى. وعندما أقول بدراسة العلامة، فإني أقصد كل أنواع العلامات وكل أنواع السيميائيات، أي ليس العلامة اللغوية فحسب، وإنما أيضا العلامة المنتشرة في شتى مناحي الحياة الإجتماعية». فاللباس ونظام الأزياء أو الستوليستيك السائدة في مجتمع ما، تشكل علامات وأنظمة علامات تختلف من مجتمع لآخر مثل: آداب الضيافة في اليابان، علاقات الزواج وتقاليده، نظام المطبخ، وإشارات المرور، كل هذا يشكل علامات وإشارات ودلالات، ولكون العرب الرواقيين من العجم الأجانب الذين دخلوا أثينا فإنهم لا يتكلمون اليونانية الأصيلة، لذلك يقول إيكو: «إذ نشعر أن الإختلاف في أصوات اللغة وحروفها، أي شكلها الخارجي الذي يدعى الدال ينبغي ألا يخدعنا، وراء هذه الإختلافات الشكلية الظاهرية بين اللغات البشرية، توجد وحدات ومدلولات متماثلة تقريبا». فهم أول من قال بالفرق بين الدال والمدلول قبل دي سوسير. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة القديس (أوغسطين)، فهو أول من طرح السؤال: ماذا يعني أن نفسر ونؤول؟ وهذا راح يشكل نظرية التأويل النصي (تأويل النصوص المقدسة). لذلك نجد أن أهمية القديس أوغسطين تكمن في تأكيده على إظهار الإتصال والتواصل عند معالجة موضوع العلامة، ثم مرحلة العصور الوسطى التي أولت جهدا معتبرا في البحث عن طبيعة اللغة والعلامة بما فيها الجهود العربية (الجاحظ، حازم، ابن قتيبة، الجرجاني) وابن سينا الذي خصص مقالا عنونه بـ: علم السيميا، ضمن كتابه: الدر النظيم في أحوال علوم التعليم، كما نجد أن ابن خلدون يخصص فصلا من مقدمته لعلم أسرار الحروف، فعلم أسرار الحروف هو: المسمى بالسيميا، الذي يبحث في شكل الحروف وما قد يدل عليه من دلالات. ثم جاءت المرحلة الرابعة حيث تشكلت فيها نظرية العلامات والإشارات مع المفكرين الإنجليز في القرن السابع عشر، ويمكن ذكر اسم كتاب لـ: جون لوك

سنة 1690 بعنوان: مقال حول الفهم البشري. الذي استخدم فيه مصطلح سيميوطيقا Semiotics وهو يعني به العلم الذي يُعنى بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل من خلالها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتهما، ويكمن هدف هذا العلم في الاهتمام بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل بغية فهم الأشياء أو نقل معرفته إلى الآخرين، ثم استمرت الأمور على هذا النحو في القرن الثامن عشر مع ظهور الموسوعة والموسوعيين، أمثال لايبنتز الذي اعتبر السيميولوجيا في علاقة مع كل أجزاء النسق بما فيها الملحقات الفلسفية والوجودية والابيستمولوجية لنظرية الدلائل، ويرى مبارك حنون أن سيميولوجيا لايبنتز: «عبارة عن التقاء مصطلحي بين التعبير والتمثيل والنوا ص ٧٧. كما أنه يقول: إيكو: «ينبغي ألا ننسى الفيلسوف هوسرل، الذي ألف دراسة كبيرة بعنوان - سيميائيات Simiotic. وفي القرن العشرين نلاحظ أن كل فلسفة تدور تستدل ما حول مشكلة اللغة ».

ولعل الذي دعا إلى علم السيميولوجيا هو فيرديناند دي سوسير (1857 - 1914) وقد نظر إلى هذا العلم المتخيل غير الموجود بمنظار نفساني (لغوي) وليس بمنظار فلسفي، وقد كانت أفكاره وتفسيراته حول هذا العلم محدودة، لأنه تطرق إليه فقط أثناء كلامه عن الإشارة المتنوعة تدخل كلها فيما سماه بالسيميولوجيا (بيير جيرو: علم الإشارة: السيميولوجيا ص 13). التي تدرس حياة الإشارة في مجتمع من المجتمعات - والتي يمكن أن تكون جزءًا من علم النفس الاجتماعي. فهذا العلم يدرس بنية الإشارات ويوضح الأنظمة والقوانين التي تحكمها وهو غير قائم - حسب قول دي سوسير - لهذا لا يستطيع أحد أن يعرف ماهيته، غير أنه في سعي دائم لتحقيق وجوده. (محاضرات في الألسنيات العامة).

والحقيقة أن السيمياء لم تصبح علما قائما بذاته إلا بعد الجهد الذي قام به الفيلسوف الأمريكي (تشارلز بيرس) 1839 - 1914. حيث قام بوضع نظرية خاصة بالإشارة سماها La Sémiotique. ويعتقد أنها شاملة لجميع العلوم الإنسانية والطبيعية، وإذا كان دي سوسير ركز على الوظيفة الاجتماعية للإشارة، فإن بيرس ركز على الوظيفة المنطقية، وهكذا تبلورت السيميولوجيا في القرن العشرين، وصارت علما تشكلت

مفرداته، وتحدّدت مناهجه وصارت حقلا معرفيا. (بيير جيرو ص 2). وتبعًا لنشأتها اتّجهت اتّجاهين كبيرين: الأوّل يحاول تحديد ماهية العلامة ودراسة مقوّماتها، وقد مثّل لهذا المعنى Pierce، والثاني يركّز على توظيف العلامة في عمليات الاتّصال ونقل المعلومات، وقد استلهم هذا الاتّجاه من مقولات F. de Sanssure.

* سيميائيات الخطاب:

تُعنى السيميائية بنظرية الدلالة وإجراءات التحليل التي تساعد على وصف أنظمة الدلالة. لهذا يجب أن نقيم تمييزا بين الدليل/ الدلالة.

عندما نتكلّم عن الدليل، فإننا ننظر مباشرة في التمفصل أو الوصلة بين عنصرين مختلفين: الدال والمدلول (أو مجال التعبير ومجال المضمون)، وبالتالي فإنّ الدليل يشكّل دائما من العلاقة بين الدال (أصوات كلمة شجرة) والمدلول (صورة الشجرة ومفهومها). فإننا نهتم في البداية بالعلاقة التي تشمل مجال التعبير (الكلمة، الجمل، الأشكال النحوية أو الأسلوبية)، ومجال المضمون (الأفكار أو معنى النصّ). بينما كانت السيميائية تهتم بالدلالة، فإنها الآن عناية بالدليل، ولا تنظر في العلاقة الممتدة من الدال إلى المدلول، فهي تعتبر أنّ كلّ مجال من مجالي التعبير (الدال) والمضمون (المدلول) يتمفصل من خلال تنظيم خصوصي: فهناك تشكل التعبير (عندما يتعلّق الأمر بالنصّ، التنظيم النحوي والأسلوبي) وهناك تشكل المضمون الذي تهتم السيميائية بوصفه على وجه الخصوص. فالسيميائية إذن، تسعى ضمن هذا التمييز الأساسي، إلى إبراز تشكل المضمون، أو تنظيم المدلول.

ويقوم تنظيم المدلول وتحليل الدلالة في السيميائية على عدة من المسلّمات منها،

1- **مبدأ المحايثة**: ما دام النصّ (التعبير) يشكّل دلاليا أو كما يُصطلح عليه (العالم الدلالي الأصغر) فإننا نطبّق عليه مبدأ المحايثة أو التحليل المحايث، ومعناه أنّ إبراز التنظيم الخاص بالوحدة المضمونية المناسبة للنصّ، لذلك فإننا لا نحتاج إلى مرجعيات سياقية أو أخبار أجنبية عن النصّ. وبهذا يختصر موضوع السيميائية على وصف الأشكال الداخلية لدلالة النصّ أو التمفصلات المشكّلة للعالم الدلالي الأصغر.

2- المسلّمة البنيوية :

كيف يمكن إبراز التوغل الداخلي للمضمون ؟ يتم فصل مضمون النّص على أساس الإختلافات القائمة بين عناصر الدلالة (أبيض / صغير ، أعلى / أسفل ، مريض / معافى) ، وهذه الإختلافات هي التي ترسم القيمة النسبية للعناصر ، لذلك فإنّ فهم المعنى في النّص مرهون سلفا بإدراك الإختلافات في ~~النص~~ مضمون النّص . ولا يتم تعيين عناصر الدلالة إلاّ بالإستناد إلى أشكال العلاقات (الإختلافات) . وتوجد ضمن هذه المسلّمة النظرية قاعدة لقيادة التحليل السيميائي ، تتمثل في تعيين الإختلافات بين العناصر .

3- مستويات الدلالة :

تذهب السيميائية في إجرائها إلى أنّ المضمون الشامل للنّص يمكن أن ينتظم ويوصف على أساس ثلاثة مستويات مختلفة :

أ - المستوى الخطابي .

ب - المستوى السردي .

ج - المستوى المنغمي الدلالي .

كما تؤكّد التحليلات السيميائية أنّ هذه المستويات ليست تخصيصا على صعيد المضمون وليس على صعيد البنيات اللسانية والأسلوبية .

أ- تحليل المستوى الخطابي :

إنّ هذا المستوى يُعدّ أوّل مستوى يلفت الإنتباه أثناء القراءة ، وقد يُطلق عليه بالمستوى الظاهري ، ففي هذا المستوى يتقدّم مضمون النّص كما لو أنّه صورة منظمة ومرتبة وفق مسارات صورية . ولكن ما هي الصور ؟

أ.1. الصور : تُحيل الصورة في السيميائية على عناصر الدلالة المحدّدة والمدرَك أثناء القراءة (شجرة - منزل ، باب ...) حيث تعتبر هذه الكلمات صورا .

لذلك فإنّ هذه العناصر المضمونية التي يلمسها أثناء القراءة تنتمي إلى الذاكرة الخطابية للقارئ ، فهي لا تناسب مباشرة وحدات صعيد التعبير ، بل تنتمي لكلمات مختلفة في اللغة ، ومن ثمّ فإنها تحتوي على البنيات الدلالية : إنّ أوّل خطوة في التحليل تتمثل في التعرّف على الصور وترتيبها ، وهو ما يتطلب ذاكرة جيّدة ، كما يجب أن نربطها

بالمكان، الأزمنة، الأمكنة، وذلك لتحديد الوضعيات الخطابية في النص، وضبط المسارات الصورية المشتغلة في النص.

أ. ب - المسارات الصورية: تشبه إلى حدّ ما البرامج السردية، فكما أن الفاعلين يتحركون داخل برامج سردية في النص، فإن الصور تشكل وتعمل داخل هذه المسارات الصورية، حيث تتوزع الصور في ترتيبها إلى مسارات صورية. ولهذا كانت ذاكرة القارئ تبدأ باستدعاء كل الصور التي يعرفها، فإن النص الذي أمامه يستغل الصورة استغلالا خاصا، نضبطه باختفاء المسار الذي تنشأ فيه الصورة وتتنامى، إنّ اشتغال الصور في المسار عملية مهمة للتحليل، فهي تساعد على توضيح وضوح الصورة، يعني الطريقة التي يشتغل بها النص هذه الصورة ويؤولها.

أ. ج: القيم الموضوعاتية:

يتعلق الأمر في السيميائية بتحديد ما يرغبه النص بالصور، كيف يصنعها ويرتبها، وعلى أي أساس تتوزع في ترتيبها إلى مسارات صورية، وبالتالي يجب أن نبحث في الوظيفة التصنيفية والسياقية للصور، ومعناه أن نبحث في النص عن القيم الموضوعاتية التي تبناها المسارات الصورية، مثلا قيمة (الرحيل)، قيمة (علاقة)، قيمة (ارتحال)، قيمة (رجاء)، قيمة (رغائب)، ولا يمكن أن نحدد هذه القيم إلا إذا قرأ النص، وضمن العالم الدلالي المصغر لهذا النص.

أ. د: الصور في الموضوعاتي: وهي الخطوة الثالثة في تحليل المكون الخطابي، أين يجب على المحلل أن يكشف عن الكيفية التي تشتغل بها التفاعل بين المسارات الصورية والقيم الموضوعاتية، والواقع أن القيم الموضوعاتية لا تكون محشوة في النص، ينبغي بناؤها انطلاقا من الصور والمسارات الصورية الملاحظة.

ب - تحليل المستوى السردي:

ونشير أولا بالمكون السردي، إذ يتقدم النص على مستوى التنظيم السردي بوصفه متتالية من الحالات والتحولات. لذلك جاء التحليل السردي يرتب ملفوظات النص إلى فئتين: ملفوظات الحالة (الكينونة) وملفوظات العمليات (الفعل). لكنه لا يحشد كل ملفوظات النص، بل ما يرضخ منها لأطوار الرسم السردي.